3 التـأويـل المستـدرج

ما برح مقدار إدراك معنى الأخوة يميز ويفاضل بين الدعاة. ولن يرتقي داعية إلى أوج الـوعي إلا إذا اعتـبر إبـراز خلـق الأخـوة الإيمانيـة وتعلـيم موازين الإخاء هدفا أساسيًا من بـين أهـداف الـدعوة الإسـلامية، وإلا إذا أدرك أن إحلال هذا الخلق في التعامل الواقعي بين المـسلمين، وتجـسيده في صورة جماعة عمل متآخية، يحول الدعوة دعاء النجـاح، ويمنحهـا لوحـدة مسوغ الوجود حتى ولو لم تصب سرعة التأثير، أو صد عنها جمهـور سـذج الناس صدودًا.

أخوة العمل لله

إنها أخوة العقيدة التي يكفي تمثلهـا في فئـة قليلـة، تورثهـا بـالتعليم إلى خلف يواصل إحياءها.

وإنها أخوة العمل التي تتخطى الألوان والأقوام، وتمزج العاملين معًـا، لتفني خصائصهم، وتكون ثم سبيكة تجيب طارقها برنين واحد متجانس:

إن يبـل مـصطنع الإخـاء فإننـا نغـدو ونـسري في إخـاء تالـد

أو يختلـف مـاء الوصـال فماؤنـا عـذب تحـدر مـن غـمام واحـد

أو يفـترق نـسب يؤلـف بيننـا عمـل أقمنـاه مقـام الوالـد

إخاء، ووصال وعمل.

نبضات تعني أمل الحياة.

ونغمات تسلي القافلة السارية نحو فجر جديد.

فمن عرف فضل الحادي، واستحلى الإنصات لنبضات قلبه، تشعره استمرارية الحياة حين سكون الجسد، لا شك يسوؤه التشويش، وتقطع لذته الهزة.

وبمقدار ما يكون إدراك مغزى الإخاء وما يؤدي إليه من فقه الطاعة ساميًا، يكون تلبيس التشويش، وما يؤدي إليه من الافتراق، ويذهب الواقف بإزاء كل منهما بنصيبه وحظه، هذا بسموه وما نال، وهذا بتيهه وما فقد.

ولقد قالها الشيخ حامد عسكرية ﷺ في أنفارٍ شوَّشوا على الإمام ﷺ، وأشار إليهم أن:

(هؤلاء لا خير فيهم، فقد فقدوا إدراكهم لسمو الدعوة، وفقدوا إيمانهم لطاعة القيادة، ومن فقد هذين فلا خير فيه في صفنا) [1].

بل وأكثر من مجرد حرمان الصف من خيرهم، فإن الفتنة إذا بدأت مبكرة في المجموعة العاملة، أو جددت وأحيت ما كان قد قطع من جذور فرقة قديمة، فإنها توفر مناخا نفسيا دائما في الأجيال اللاحقة يسمح بتكرار الافتتان، وربما عذر المقلد، وناء الرائد بإثمه، بما سن من بدعة تغري المتأخر وتستجيش.

بداية الفتنة تأويل

وسبب ذلك أحيانًا: أن القلب كالعين في إبصارها، فتجد عينا لا تبصر البعيد، وأخرى لا تبصر بمجرد ضباب طفيف أو غبار خفيف فضلا عن أن تكون في ظلام.

---

(1) مذكرات الدعوة والداعية/ ١١٣.

فإبصار القلب تابع لقوة الفقه ونور الإيمان ومقدارهما، وكلما كان الأمر المختلف فيه من سياسة الدعوة لا يضبطه نص واضح، ويلزم فيه الرجوع إلى القواعد العامة وقواعد جلب المصالح وسد المفاسد وأبواب الشبهات كان استنباط الفقه فيه أصعب، والفتوى به تحليلا وتحريما، أو استحبابا وكراهة أشد صعوبة، لأن التأويل له مجال في الحكم آنذاك، ولو نظرنا إلى فقهاء القرون الأولى لوجدنا أنهم ألزموا أنفسهم باحتياطات كثيرة في هذه الأبواب من السياسة الشرعية، ومع ذلك أخطأ بعضهم وأتي بالغريب الذي يأباه جمهور الفقهاء، فكيف بنا نحن في هذا الزمن المتأخر؟

ثم أتم الإمام البنا رحمه الله فقه الأوائل؛ فوضع أصولا صحيحة لسير الدعوة ومراحلها، ومفاهيم عامة تحدد إطار الفكرة وأساليب التعبير، وتلبس الرعيل الأول الذين معه بكل ذلك، وبإرشاده أطالوا مرحلة التربية، وجردوا الدعوة على أساس عقائدي، وابتعدوا عن التحالف مع الأحزاب، وحذروا أن يقعوا في هيمنة الكبراء. غير أن البعض دخلوا باب التأويل تدريجا، ومالوا عن التربية الأصيلة المعهودة إلى استعجال يضطرون معه إلى تساهل في توثيق الرجال، فأبعدتهم تأويلاتهم عن جوهر الدعوة الذي عرفت به، كما أبعدت سلفهم في صدر الإسلام عن جوهر الإسلام، مع غلبة الورع آنذاك.

ومثلما رأينا، انتصار صاحب كل تأويل إلى تأويله حين أنكر عليهم جمهور التابعين والفقهاء، فنشأ القول بالقدر والتجهم والاعتزال والإرجاء والخروج، نرى اليوم تواصي المتأولة، ونشوء فقه غريب يجيز باسم مصلحة الدعوة تجهُّما في الوجه، وتهجُّما في اللسان، واعتزالا للعمل، وخروجا عن البيعة، لا يدرون أن ذلك ما هو بالجديد.

سواد ينتشر

ولتحذير هذا المعدن الأول الآخر، القديم الجديد، ضرب الله مثلا، فأمرنا أولا بالوفاء فقال:

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل:٩١].

(والوفاء بعهد الله يشمل بيعة المسلمين للرسول ﷺ، ويشمل كل عهد على معروف يأمر به الله)[1].

ثم قال لمن له قلب يحذر:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ [النحل:٩٢] .

(فمثل من ينقض العهد مثل امرأة حمقاء ملتاثة ضعيفة العزم والرأي، تفتل غزلها، ثم تنقضه مرة أخرى قطعا منكوثة ومحلولة)[2].

ويجيء كلام النبي ﷺ يبين أمثال الله تعالى التي يضربها للناس، ويوضح أنها مسألة استعداد في بعض القلوب لقبول الافتتان؛ فمن الناس من جعل الله فيه فطرة صالحة تنكر الفتن، ومنهم من يأبى بعض الهداية فيضله الله، فمن أباها ابتداء أباها انتهاء، ومن رحب بها ابتداء طبعت في قلبه سوادًا يظل يتسع حتى يتم اسوداده مع نهايتها، كما ورد في الحديث الصحيح عند مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(تعرض الفتن على القلوب كالحصير، عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين،

---

(١) (٢) الظلال ١٤/ ٩٣، ٩٤.

على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًا، كالكوز مجخيا، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه) [1].

وربما يملك القلب الاستعداد للفتنة، لكن وقت الرخاء والعافية لا يفضحه ويتستر عليه، فإذا اكتنفته الشبهات، وهيجته المهيجات، انفضح وانكشف.

وشبهوه في ذلك بصاحب الصدر المريض، ما أحسن تنفسه أيام الصفاء، فإذا أثارت الريح الغبار لهث، وضاف نفسه، واختنق.

أو كحوض ماء راكد، ترسب الطين في قعره، تلقي فيه حجرًا صغيرًا فيختلط كله وقد كنت تظنه زلزلا، أما الحوض النظيف، فإن إلقاء الحجر فيه يزيده جمالا، بما أحدث من دوائر الأمواج التي تعكس ظلال الأغصان الخضراء.

انظر آثار حجر الفتنة في القلوب تحكم عليها، ولا تغترن بظاهر من الركود موهم، ولا تستكبرون وصفنا للمفتتن أنه كالكوز المنكوس، فكم رأينا من انتهت به أيامه إلى ترك الصلاة.

الدعوة محفوظة

واعلم أن من أبى لن يضر الدعوة شيئا، فإنها محفوظة، وليس لما تبني يد الله هادم، وأن قول المخلص يخلص صدقه، وتأبى فما تزكو لباغ بواطله.

---

(1) صحيح مسلم ١/ ٨٩، وقوله:" أسود مربادًا"، أي : شدة البياض في سواد . وقوله: "مجخيا"، أي : منكوسا . وفي زهد ابن المبارك ٥٠٤ قولة لعلي رضي الله عنه تقرب من هذا الحديث.

وكما قال عبد القادر عودة رحمه الله:

(إنها دعوة الله وليست دعوة أشخاص، وإن الله علم المسلمين أن الدعوة ترتبط به ولا ترتبط بالدعاة إليها، وأن حظ الأشخاص منها: أن من عمل لها أكرمه الله بعمله، ومن ترك العمل لها فقد أبعد الخير عن نفسه، وما يضر الدعوة شيئا)[1].

بل لاحظ الإمام البنا رحمه الله حدوث النفع للدعوة، فروي أنه لما أصدر أحد المخالفين كراسا يهاجم فيه القائمين بأمر الدعوة، ورد عليه القائمون، (ما كاد هذا الرد ينشر حتى تلقفه الناس، ولفتت هذه الحركة أنظارهم إلى الدعوة، وأخذوا يهتمون بكل ما يتصل بالجماعة، فكانت تلك الحركة من أكبر العوامل على انتشار وانضمام عناصر كثيرة من الناس[2].

النسافات

ولهذا أشفق الأولون على أهل الفتن، وحذروهم سوء العاقبة، فكان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول:

(إياكم والفتن، لا يشخص إليها أحد، فوالله ما شخص إليها أحد إلا نسفته، كما ينسف السيل الدمن).

ويصور لنا قتادة بن دعامة رحمه الله، وهو أحد أجلاء التابعين، تجربة فتنة رآها، ويضع أمامنا نتائجها التي رآها، فيقول:

(قد رأينا والله أقوامًا يسرعون إلى الفتن وينزعون فيها، وأمسك أقوام عن ذلك هيبة لله ومخافة منه، فلما انكشفت: إذا الذين أمسكوا أطيب نفسا، وأثلج صدورًا، وأخف ظهورًا من الذين أسرعوا إليها وينزعون فيها،

(1) مجلة (الدعوة) العدد ٥٢.

(2) مذكرات الدعوة والداعية / ١١٧.

وصارت أعمال أولئك حزازات على قلوبهم كلما ذكروها. وأيـم الله! لـو أن الناس كانوا يعرفون منها إذا أقبلت ما عرفوا منها إذ أدبرت لعقل فيها جيل من الناس كثير).

ووالله قد رأينا ما رأى قتادة، وعرفنا بعـض مـن شـارك في الفـتن تكـاد أجسادهم تتهدم وقلوبهم تتقطع كلما ذكروا ما كانوا فيه مـن العـز، ومـا آل إليه أمرهم بعد من الإنغمار.

ولا ينجو من هذه الفتن إلا السيد، صاحب أخـلاق الـسيادة، الحلـيم، المحب للتوبة، فإنه قد ينخدع بزخارف يصوغها المفتن، لكنـه سرعـان مـا يرجع إلى رشده وصوابه، وهو ثالث الثلاثة الذين عـددهم حذيفـة رضي الله عنه حين قال:

(إن الفتنة وكلت بثلاث:

بالحاد النحرير الذي لا يرتفع له شيء إلا قمعه بالسيف.

وبالخطيب الذي يدعو إليها.

وبالسيد.

فأما هذان فتبطحهما لوجوههما.

وأما السيد فتبحثه، حتى تبلو ما عنده).

فالحاد النحرير ليس له رجاء النجاة.

والخطيب فيها صاحب سيف أيضًا، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في بعـض ما يؤثر عنه: إن سيفه لسانه، فهو مع صاحبه.

إلا السيد، فإن الفتنة هي امتحان له، فإن كانت أخلاق السيادة فيه أكثـر ميزها، وإن كانت أقل جرفته، فقد يفيق في أولها، وقد يفيق في وسطها، وقد

يفيق وهي على مشارف نهايتها، بمقدار ما فيه من النبل، وبمقدار ما عنده من العلم، فإن (الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل) كما يقول الحسن البصري سيد التابعين[1]، فإن كان علمه كاملا أبصرها قبل مجيئها ورأى نتائجها وكأنه يهتك حجب الغيب، ويتأخر وقت إدراكه لضررها كلما كان علمه أقل، فإذا انتهت فلا فضل له في رؤية تشتت دعاتها وإفلاسهم، فإنها تكون مشاهدة بصر لا إدراك قلب، يتمكن منها من لا عقل له أيضًا، وعندئذ لن تنقذه إلا توبة نصوحة جازمة تبعده عن فتنة مقبلة أخرى، يتزود لها التقوى، ويأتم بالدليل، ويسلك الصراط، ويدور بعدها ضمن نظام الجماعة وخطتها وأعرافها.

* * *

(1) تاريخ البخاري الكبير ج٢/ ق٢/ ٣٢٢.

obeikandl.com

4 سلاسـل العيــوب

كل صادق في إسلام وجهـه لله تعـالى، يـدرك - مـع أول خطـوة- أنـه مهاجر إلى الله وحده، فار إليه، فلا يزال متعجلا مشتاقًا.

وهو مع أول فراره هذا، يدرك علو مدرجـه، ويعلـم أنـه طبقـات، فـلا يزال مرتقيا صاعدًا، موقنا أن مرتبة الجنة العليا تقتضي علوا في نيته، وترفعـا في مسلكه، عن الخلط والنقصان.

فهو يريد استكمال عناصر الإيمان كلما علم أن هناك ثمة ثلمـة، ويعـزم لذلك عزمة، فإذا شرع في الاستكمال أدرك ضرورة الصفاء فيه، وأن يرفـأ ويرتق بجنس ما وهبه الله من خير آنفا، ألا يفضحه النشاز، فيعزم لـذلك عزمة أخرى، فثالثة تستدعي رابعة، في نهضات متواليـات، حتـى يـصيب مراده.

وأما من خلط: فقد غلط، لا يستطيع تناوش الاستكمال من مقعد تخليط بعيد، ولا الارتواء من كأس ممزجة مشوبة ليس فيها الصريح.

ذو العيب يحتاج الدعاية

ولقد شبهوا المستكمل النقي ببدر تمـام كيـف أنـه اسـتدار، لم يتربـع ولم يتطاول!

فالبدر تمدحه خاصة الشعراء، حتى امتلأت دواويـنهم بوصـف بهائـه، وهو صامت ساكت، بعلوه وقار الاطمئنان، أنه لن يغفل عن روعته أحـد، فمن ملتذ برؤيته في صمت أيضًا، ومنبه اللسان.

قالوا: أما الناقص، المفضوح بفتوق لا رتق لها، فهو كالقمر حين يخسف، يخرج عن سكينته وصمته ويحتاج لضجيج الطبول، ومدائح الأطفال، ويستجيش حماسة العجائز، يهيب بهن أن ينكرن على حوت ابتلعه واعتدى على حقه وجماله.

الإتمام الصامت

ولذلك كانت وصية السلف أن: التمام التمام.

أرسلها أبو بكر رضي الله عنه من وراء الصحراء إلى خالد بعد انتصاراته في العراق، أن:

(ليهنك أبا سليمان النية والحظوة، فأتم: يتم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل، فإن الله له المن، وهو ولي الجزاء...)[1].

يطلب منه الإتمام الصامت في غير وقوف عن السير حتى يكون كذلك البدر.

ثم ورثها عن خالد أحمد بن حنبل، فما وقف، حتى قال صاحبه المحدث إبراهيم الحربي:

(لقد صحبته عشرين سنة، صيفا وشتاءًا، وحرًّا وبردًا، وليلا ونهارًا، فما لقيته في يوم إلا وهو زائد عليه بالأمس)[2].

لم يعرف الوقوف فضلا عن التخلف ورجوع القهقري، إنما هو المرتقى المتعجل المتمم.

---

(1) تاريخ الطبري ٣/ ٣٨٥.

(2) مناقب أحمد لابن الجوزي / ١٤٠.

تثبيت وتثبيط

ولبثوا في التقدم الجريء حتى دخلوا السباق، كل يحب أن يقرب من الكمال أدنى، حتى ليأتي أحدهم الديار البكر، ويرتاد كل يوم منزل فضل لم يعرف لأحد قلبه، ويأتي في التنافس بجديد، لم يكن له ولا لغيره بالأمس، وحتى راح الشاعر يتساءل ويبدي دهشته مخاطبا أحدهم:

عجبا بأنك سالم من وحشة في غاية ما زلت فيها مفردًا

يتعجب كيف لم يرجف فؤاده وهو المتوحد بلا أنيس معه يشاركه خلقه الذي هو فيه، كأنه طليعة جيش...

فأما الموفق فيمضي قدمًا، ملتذًّا بتفرده هذا، ثابتا بتثبيت الله تعالى:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال:١٢].

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه:

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٤].

(فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت)[1].

وأما الراجف فيعلن برجفته للشيطان عن ضعفه فيأتيه في صورة الأنيس، يحاوره، ويساره، حتى يجد فرصة إلقاء كلمة التثبيط...

إنها رجفة المتوغل الضعيف، توقف ولا تؤخر، والعاصم منها إنما هو الصدق.

---

(١) إعلام الموقعين ١/ ١٧٧ طبعة محمد محيي الدين.

(فأثبت الناس قلبا: أثبتهم قولا، والقول الثابت هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة، ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبا، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونا وأقلهم ثباتًا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة)[1].

ولهذا كان دواء الضعيف إن أراد الوقاية من هذه الرجفة أن يكون صادقا، وهو الدواء الذي عصم به أبو ذر رضي الله عنه نفسه منها لما عرف ما هو عليه من الضعف فقال:

(يا رسول الله: أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: تكف شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك)[2].

فكف شره ولم يفتتن زمن الفتنة، يعينه صدقه، إذ لم تقل الغبراء ولم تظل الخضراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر، كما قال النبي ﷺ.

لكن المفتقر إلى درجة أبي ذر في الصدق يدخل في الشر بمقدار فقره، فلا ترى ضعيفا بعده إلا وهو بخيل في التصدق على نفسه يلفه الشح الشديد المفضوح، أو يحرمها من الطيبات فحسب، بمقدار قربه من الكذب أو بعده عنه.

---

(1) إعلام الموقعين ١/ ١٧٧.

(2) صحيح مسلم ١/ ٦٢.

للعيوب نقاط انطلاق

ولو سلم بعد هذا البخل لهان خطبه، ولكن العيب من شأن أن يتتابع بشكلين مزدوجين: عدوى وتنوعا، فيكون كثيرة تقعد بصاحبها وتسري إلى غيره كعدوى المرض.

أما العدوى: فإن وحشته الأولى قد أوقفته عن التقدم بما رجف فؤاده، لتفرده في خصلة خير قد زهد فيها غيره، ثم يخطئ ويأتي عيبا، ومن شأن البشر الخطأ، فيربأ بنفسه ثانية عن التفرد في الخطأ ويعتاد طلب الأنيس، وينسى طريق التوبة القريب، فيكون داعيا للخطأ، كما قال زهير بن نعيم:

(يخطئ فيحب أن الناس قد أخطئوا) فيصبح بالفتنة في كل واد، ينشرها أفقيًّا، ويصير راجفا مرجفًا.

وأما التتابع النوعي فلأن العيوب مترابطة، بعضها يستلزم البعض، مثل ترابط أخلاق الإيمان، وهو ما قرره الفضيل بن عياض حين قال:

(من أراد أن يسلم من الغيبة فليسد على نفسه باب الظنون، فمن سلم من الظن سلم من التجسس، ومن سلم من التجسس سلم من الغيبة).

ولا شك أن الفضيل قطع ذكر التوالي استفزازًا لنباهتك، فإن العيوب تترى، بعضها يردف بعضا فآخر ما ذكره الفضيل، وهي الغيبة: هي أول سلسلة أخرى، فإن الغيبة تقود إلى الحسد، والحسد يقود إلى النميمة، والنميمة تقود إلى الكذب، ومن استجاز الكذب لم يتورع عن النزاع، إلى مائة عيب.

وهذا ما يقرره الأستاذ المرشد الهضيبي، فإنه يرى أن أكثر الشرور تبدأ بالغيبة، ويقول:

(وليعلم المسلم أنه لا يكون مسلمًا حقا إلا إذا أصبحت عقيدته جزءا لا

يتجزأ من أخلاقه وسلوكه، فيكون عادلا مع الناس جميعا ويحذر نوازع الهوى أن تميل به عن هذا العدل مع أقرب الناس إليه، فلا يذكر إخوانه بسوء ولا يغتابهم، ولا يلمزهم، فإن أكثر الشرور إنما تنشأ عن مثل ذلك)[1].

ورأس هذه الشرور في مشاهدات الفضيل: ارتفاع الأخوة.

يقول رحمه الله:

(إذا ظهرت الغيبة، ارتفعت الأخوة في الله.

إنما مثلكم في ذلك الزمان مثل شيء مطلي بالذهب والفضة، داخله خشب، وخارجه حسن).

هي سلسلة طويلة من العيوب، كل يكشف بعض الحلقات المتقاربة منها، وكما وصف الفضيل بعضها، كشف الرجال الصالح أبو بكر الحكيم الوراق بعضا آخر منها، فقال:

(**إذا غلب الهوى** أظلم القلب، وإذا أظلم القلب، ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق، وإذا ساء الخلق، أبغضه الخلق).

توالد مستمر:

وكما كانت الغيبة وكان الهوى نقاط انطلاق لعيوب كثيرة يكون الانتصار للنفس نقطة تنطلق منها أيضا جملة وسائل ملتوية.

(ويظهر أن النفس الإنسانية إذا ألح عليها معنى الانتصار ولو بغير الحق لم تعد تفكر فيما عداه وإن ساقتها وسائلها الملتوية إلى الهزيمة المتكررة حتى تصل إلى الهزيمة التامة)[2].

---

(1) مجلة (المسلمون)، ١/ ٤٢٠.

(2) مذكرات الدعوة والداعية/ ١١٢.

وكل ذلك يصيب مجتمع الدعاة الـصغير كـما يـصيب مجتمـع المـسلمين الكبير إذا اعترتهم الغفلة. ومن مرت أمام نظره فتنة سـلمه الله منهـا عـرف مقدار صواب الفضيل والوراق والهضيبي، والمجادل ينكر احـتمال تعـرض الدعاة لغيبة، يسميها النقد الذاتي، وينكـر تلـبس الداعيـة بـالهوى، يـسميه الاجتهاد والوعي الجديد وما شاء من الأسماء، وما دري أنـه مـن جهلـه في إغواء، ومن هواه في إغراء.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

5 سهام الشيطان

هي سلاسل مقيدة موثقة، كما أنها سلاسل متتابعة متوالدة، تلك العيوب الثالمة الثالبة، تشل صاحبها عن حيوية في الخير وحراك، وتشده إلى أرض الجمود.

لها تزين وتزيين.

ولسان طويل وترهيب.

لكنها جبانة عند لقاء المؤمن، تخاف انتباهه.

لا قليل من الإثم

لذلك كان التخلص من سجن العيوب الخلقية وأسرها يمثل المرحلة الضرورية الأولى في الصياغة التربوية للداعية المسلم، نحرص على التحرير قبل إعطاء الوعي وتعليم الفقه والتدريب على كسب الأنصار، لا نهتم قبل تقطيع وتكسير حديد سلاسل العيوب بشيء.

فمن تجاوز هذه الخطوة في البداية الصحيحة فكأنما هو مراوح في مكانه، لم يبرح موضعه، وإن قطع المسافات بدونها، وأقام الشهود على قدم الانتساب، وليس هو إلا في تكرير وتقليد لذاك الرجل الذي جاء إلى الزاهد أبي علي الدقاق، يشتاق إلى مواعظه، فقال:

(قد قطعت إليك مسافة).

أي سافر إليه من بلاد بعيدة يبتغي أن يكون له تلميذا وصاحبا، يظن أن طول رحلته يمنحه أولوية على غيره في القرب من أبي علي.

obeikandl.com

فقال له أبو علي:

(ليس هذا الأمر بقطع المسافات، فارق نفسك بخطوة يحصل لك مقصودك).

وهذه هي النفس الأمارة بالسوء، ذات العيوب، عناها أبو علي، لن يحصل مقصود الدعوة في الداعية حتى يفارقها بخطوة تكون دليلا على أنه قد حل وثاقها له.

أي وثاق كان، بسلاسل غلاظ أم دقاق رفاع، ما دام منهن تكتيف وإقعاد.

وهذا هو الذي أدركه عمر بن عبد العزيز بثاقب بصيرته الإيمانية، فطفق يلح على الواحد من ولاته على الأقاليم أن:

(لا يكونن شيء أهم إليك من نفسك، فإنه لا قليل من الإثم)[1].

يراه كله قيدًا، قليله وكثيره، هذا الإثم.

فلما تخلص عمر والذين معه من قليله، واهتزت الأرض لذلك وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، أيقنها الناس نظرية لعمر في طلب كل خير وصاغها شاعرهم وصية:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التقى

واصنع كماشٍ فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

وتمثيل التقوى بحذر الماشي فوق أرض كثيرة الشوك يؤثر عن الفاروق رضي الله عنه، وبذلك جمع الشاعر بين خلاصة فقه العمرين، ومن عرج ساعة

(1) تاريخ الطبري ٦/ ٥٦٩.

لشوكة شيكها، حتى وجد منقاشا، ثم استخرجها ضاحكًا من شدة صغرها كأنها ذرة، عرف أن لا قليل من الإثم حقا.

نحو براءة عمرية

ولولا أنها أول المبادرين إلى تطبيق حكمتها لما خلدت، لكنه هو الفاروق لما مات رثته ابنة أبي خيثمة فصاحت:

(واعمراه...

أمات الفتن، وأحيا السنن، خرج نقي الثوب، بريئا من العيب)[1].

بكل معنى البراءة والنقاء.

أفرأيت كيف انتبهت إلى سر مناقبه!

إنه سر براءة الداعية من العيب يفعل لدعوة الإسلام أفاعيلها وفتوحها، وكفي به من سر وسلاح.

وأحدنا اليوم تخالط قلبه أدران الغرور، ويوهمه خيره القليل، فيغتر إدلالا، وبتوقف عن الاستزادة امتنانًا، آمنا غير وجل، وقانعا غير طامع.

ولو أنا ذكرنا ما كان عليه أمر العمرين والسلف، ثم أجرينا المقارنة والمقايسة، لتجدد لنا الخوف، وانبعثت الرغبة، وحصل الحث، وعرفنا قدر نفوسنا.

ولكن خلف نخشى الفضيحة.

قالها صادقة صريحة الرجل الزاهد عبد العزيز ابن أبي رواد رحمه الله، واعترف بأننا:

(إذا ذكرت أحوال السلف بيننا افتضحنا كلنا).

---

(1) تاريخ الطبري ٤/ ٢١٨.

openkanal.com

كلهم في القرن الثالث، فأي فضيحة لمن في القرن الخامس عشر؟

لا ترفع سعرك....

يفضحنا العجب بالنفس.

والمعجب مفضوح ولا شك بفضيحتين:

بفضيحة الزلل والسقوط أرضًا، إذ ما زال القدماء يقولون عن فلان:

(إن العجب أخذ برجله فزل)، كمن يهمل النظر في السوق إلى موضع قدمه، فيزلق بقشر أو يعثر بحجر، فمن راث لحاله وشامت، ويقوم متهمًا، تأتيه النصائح من كل جانب، وما هو بحاجة إليها بعد ارتجاج عظامه.

أو يغالي: يطلب لنفسه السعر العالي، فيفضحه الشافعي، وينادي في السوق:

(من سامى بنفسه فوق ما يساوي رده الله تعالى إلى قيمته).

وسبب العجب أن المعتقد له يستصغر ما علم من ذنوبه، وينسى كثيرًا منها.

فبشر بن الحارث الحافي يعرف العُجْب بأنه:

(أن تستكثر عملك، وتستقل عمل غيرك).

وهذا الجانب من الاعتداء والازدراء هو الجانب الأظهر في العجب حين فحصه سفيان الثوري، حتى كأنه قصر تعريف العجب فيه، فحذرك:

(إعجابك بنفسك حتى يخيل إليك أنك أفضل من أخ لك، وعسى ألا تصيب من العمل مثل الذي يصيب، ولعله أن يكون هو أورع منك عما حرم الله، وأزكى منك عملا).

obeikandl.com

وكأن الفضيل بن عياض رآه رؤية الثوري، فجعله مستقلا عـن جانـب الاستكثار الذي ذكره بشر، ومستقلا عن نسيان الذنب، فقال:

(إذا ظفر إبليس من آدم بإحدى خصال قال: لا أطلـب غيرهـا إعجابـه بنفسه، واستكثاره عمله، ونسيانه ذنوبه).

وهذا يعنـي: أن هـذه الـثلاث، الجامعـة لأوصـاف العجـب حـين رآه الصالحون من زواياه المختلفة، هي رأس الـسوء عنـد الفـضيل، بحيـث إن إبليس يضمن بعدها كل عيب يحبه.

أي أن العجب أصل كل بلاء وفتنة عنده.

يجدد بذلك ما نقل له عن عيسى عليه السلام لما قال:

(كم من سراج قد أطفأته الريح، وكم من عبادة قد أفسدها العجب).

فالعمل الصالح ضياء ونور، يتحول إلى ظـلام إذا هبـت ريـح العجـب عليه، هكذا بهبة واحدة.

صرعى المدائح الخمس

قال الثوري:

(فإن لم تكن معجبا بنفسك فإياك أن تحب محمـدة النـاس، ومحمـدتهم أن تحب أن يكرموك بعملك، ويروا لك به شرفا ومنزلة في صدورهم).

❊ وهذا هو السهم الثاني من سهام الشيطان بعد العجب، يعمل أحدهم عمله وهو يريد المكانة به.

وصرعى هذا السهم كثيرون أيـضًا، يـأتيهم مـا يـأتي مـن جهـة حـب المحمدة العملية.

obeikandl.com

* فمنه هذا، ومنه ما يأتي من جهة حبِ محمدة الناس القولية، يجربون في مدحه بلاغتهم لأغراض في نفوسهم، وهو أدرى بها بين جنبيه لو ادكر، لكنه ينسى فيغتر، ويعرض عن ناصح أمين يعلمه أدب الدنيا والدين من قريب:

يا جاهلا غرة إفراط مادحه

لا يغلبن جهل من أطراك علمك بك

أثنى وقال بلا علم أحاط به

وأنت أعلم بالمحصول من ريبك

لكنه إن لم يعرف هو منزلته فإن الفضيل بن عياض قد وضع في يدك ميزانًا تشخص به فصيلته، فقال:

(إن من علامة المنافق أن يحب المدح بما ليس فيه، ويكره الذم بما فيه، ويبغض من يبصره بعيوبه).

فتراه لو مدحه أحد ينتفخ صدره في الحال، ويطرب، وتسبح الخيالات في بحار من اللذة الغامرة، فإذا جاء آخر ناصحًا له انقلب بسرعة إلى حالة غريبة، يضيق فيها صدره، وتتسارع أنفاسه، وينفلت لسانه بكل لفظ خشن.

إن ستر الله تعالى لكثير من زلاتنا وعيوبنا إنما هو نعمة كبرى، وكل منا أدرى بحقيقة نفسه من غيره، وما تزكية الغير لنا إلا من شباك الاستهواء التي ينصبها الشيطان.

ولقد تأمل خالد بن صفوان في أحوال الناس فحذرك:

(أن أقوامًا غرهم ستر الله، وفتنهم حسن الثناء، فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك).

obeikandl.com

* ومنه نوع ثالث، وهو مبادرة الناقص لمدح نفسه بلسانه، ذكره الله تعالى فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم:٣٢]، وجعله رباح القيسي سبب فساد الأعمال لما سئل:

(ما الذي أفسد على العمال أعمالهم؟

فقال: حمد النفس، ونسيان النعم).

واستدل به الشاعر على وجود المعايب فقال:

عجبا لمادح نفسه لا يهتدي لتنقص يبديه فيه مدحها

مدح الفتى عند التحدث نفسه ذكرى معايبه فيدري قبحها

* ومنه نوع رابع غريب، فإن بعض من يتمكن منهم العجب، ويرون افتضاح أمرهم، يلجئون إلى ذم أنفسهم أمام الغير، ظنا منهم أن الذم سيؤدي إلى اعتقاد المقابل بعدهم عن العجب، وما دروا: أن التواضع منحة ربانية لا تفتعل افتعالا، وإنما تتنزل على من يعلم الله صدق توجهه، وقد كشف الحسن البصري أمر هؤلاء، وأكد لنا أن:

(من ذم نفسه في الملأ فقد مدحها، وذلك من علامات الرياء).

ومنه نوع خامس أكثر غرابة، إذ يسخر الشيطان لعاشق المدح من يقوم بدور متوسط، فهو لا ينصحه، يخاف أن تتجدد ثورته، ولا يمدحه، يخاف أن ننكر عليه، بل يلجأ إلى ذكر عيوب أقرانه الآخرين، يرمي زيدًا بالسذاجة، وعمرًا بالدنيوية والكسل، فتهدأ النفس الثائرة، وتطرب من جديد، ونرى فيها صورة واقعية تصدق الفضيل حين يقول:

(إن من علامة المنافق أن يفرح إذا سمع بعيب أحد من أقرانه).

obeikandl.com

كفى بالله مزكيا

لكن الكيس من دان نفسه دائمًا، واتهمها بالتقصير، ورأى أن مـا يعملـه مهما كثر قليل بجانب حقيقة شكر الله.

وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: رجل تصدق بيمنه صدقة لا تعلمها شماله، ومثلـه الـذي يفـتح الله عـلى يديـه بـالأعمال الـصالحة لا يعلمهـا إلا قليـل، ويراهـا المسلمون فـلا يعرفـون صـاحبها، والدعاة يهتفون من أول يومهم أن: الله غايتنا.

فما ضرهم أن يحشروا مع قتلى نهاوند الذين لا يعـرفهم النـاس، بـل الله يعرفهم.

يقول مدرك بن عوف الأحمسي:

(بينا أنا عند عمر رضي الله عنه إذ أتاه رسول النعمان بن مقرن، فجعل عمر يـسأله عن الناس، فجعل الرجل يذكر من أصيب الناس بنهاوند، فيقـول: فـلان بـن فلان، وفلان بن فلان. ثم قال الرسول: وآخرون لا نعرفهم.

فقال عمر رضي الله عنه: لكن الله يعرفهم)[1].

وفي لفظ آخر:

(ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم)[2].

وإنما يُسد باب الفـتن في الـدعوة بمثـل هـؤلاء الجنـود الـذين يجـردون عملهم لله، ولا يحفلون بمعرفة غيرهم أو جهلهم لمـا يعملـون، وإلا فإنهـا سهام الشيطان قاتلة.

---

(1) الخراج لأبي يوسف/ ٣٥.

(2) مجلة (المسلمون)١/ ٥٩٦.